الحمد لله الذي يحق الحق ويقطع دابر الكافرين، نحمده سبحانه أيّد المومنين الصادقين المخلصين بنصره، وأعلى كلمته وأعز جنده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. بشر رسوله بالفتح المبين والنصر العزيز فقال (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا)

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، أرشد الخلق لدين الحق، بسيفه وهديه للحق.

ونصلي ونسلم على فخر البشر والعرب، وأفضل الخلق أجمعين، ما حكيت قصة حياته وسيرته العطرة، وستظل تحكى إلى أن تنتهي الدنيا ولو كره المرتابون والمبغضون. ورضي الله عن آله وصحبه (الَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

أما بعد أيها المومنون - لقد ارتبط شهر رمضان في نفوس المومنين بالكثير من الغزوات النبوية والحوادث العظيمة في تاريخ الإسلام، ومن أعظمها فتحُ مكة المشرفة، وهو الفتح الأعظم الذي اعز الله به دينه ورسوله وجنده، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضُربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرق به وَجْهُ الأرض نوراً وابتهاجا.

وسببُه أن مشركي مكة نَقَضُوا معاهدة الحديبية التي أبرمت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك إيذانا بغضب الرسول عليهم، فقدم أبو سفيان بن حرب على رسول الله ﷺ المدينةَ يسأله أن يجدد العهد ويزيد في المدة فأبى رسول الله عليه ذلك، ثم انصرف أبو سفيان إلى مكة، فتجهز الرسول ﷺ من غير إعلام أحد، وأخفى أمره داعيا ربه ان يأخذ على أبصار قريش فلا يروه إلا بغتة، وخرج لهم بكتائب الإسلام وجنود الرحمن. وبعث رسول الله ﷺ إلى مَن حوله مِن العرب: أسلم وغِفَار ومُزَيْنَةَ وجُهينة وأشجَعَ وسُليْمَ، فجلبهم فمنهم

من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه بالطريق. وخرج يوم الأربعاء لعشر ليال خلت من شهر رمضان بعد العصر سنة ثمان من الهجرة، وكان المسلمون عشرة آلاف وقيل اثني عشر ألفا، ونادى مناد رسول الله: من أحب أن يفطر فليفطر، ومن أحب أن يصوم فليصم، ثم سار فلما كان بـ"قديد" عقد الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل، ثم نزل مرّ الظهرانِ عشاء، فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار، ليلقي الرعب في قلوب قريش فتأتي صاغرة للتسليم، فبعث المشركون أبا سفيان وقالوا إن لقيت محمدا فخذ لنا منه أمانا، فخرج أبو سفيان مع اثنين حتى أتوا "مرّ الظهران" فلما عاينوا العسكر أفزعهم ما رأوا، فأسلم الثلاثة ورجعوا لقومهم منذرين. وقد حُبس أبو سفيان ليرى مالا قِبَل له به، فقال للعباس: يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما، فقال العباس: ويحك انه ليس بمَلِكٍ ولكنها النبوة.

وكان دخول الرسول مكة عنوة في عشرين رمضان يوم الجمعة في كتيبته الخضراء وهو على ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير، وعلى رأسه قلنسوة وقيل عمامة سوداء، وأصدر الرسول الأوامر إلى قادة الجيش ألا تقاتلوا إلا إذا أكرهتم على القتال.

ونادى منادي الرسول: مَن دخل المسجد فهو آمن، ومَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن، إلاّ مَن استثناهم النبي ﷺ وأهدر دماءهم، وأمر بقتلهم ولو وُجِدوا متعلقين بأستار الكعبة وهم ستة نفر.

وطاف رسول الله بالبيت وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، فجعل كلما مر بصنم منها يشير إليه بقضيب قي يده ويقول: (وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)، فيخر الصنم ساقطا مع أنها كانت مثبتة بالحديد والرصاص.

وأراد فُضَالة بنُ عُمَيْر بنِ الملوّح أن يقتل النبي وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال رسول الله أفضالة، قال نعم يا رسول الله، قال ماذا كنتَ تحدّث به نفسك، قال لا شيء، كنتُ أذكر الله، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: استغفِرِ اللّهَ، ثم وضع يده الشريفة على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: واللهِ ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئا أحب إلي منه.

ولم يحدث في فتح مكة إلا مناوشاتٌ خفيفة وأهمُّها ما لاقاه خالد بن الوليد قائد الجناح الأيمن، فقد قتل حوالي عشرين رجلا، ممن وقفوا في طريقه ولم يقتل من المسلمين سوى اثنين.

ولما تمّ للمسلمين فتح مكة ونظر رسول الله ﷺ إلى البلد الأمين، وإلى الجبال التي كان يأوي إليها حين يشتد به أذى قريش، فترقرقت في عينه دمعة شكر الله عز وجل، ثم سار حتى بلغ البيت الحرام فطاف به سبعا ثم استلم الحجر، وتكاثر الناس حوله في المسجد، فخطبهم وتلى قوله تعالى(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) ثم قال: يا معشر قريش ويا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ، اذهبوا فانتم الطلقاء.

وبهذه الكلمة صَدَرَ العفو العام عن أهل مكة جميعا، ولله در النبهاني رحمه الله حين قال في طيبته الغراء:

لو أراد النبي سالت دماءً	من قريش كأنها دأماءُ
قال والكل في يديه أسارى	دون تقييدٍ: أنتمُ الطلقاءُ
فاستحالتْ محاسنا سيئاتٌ	القوم حتى كأنهم ما أساؤا

ثم إن الناس اجتمعوا بمكة لمبايعة رسول الله ﷺ على السمع والطاعة لله ورسوله، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء كذلك، وأقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوما، يجدد خلالهن معالم الإسلام ويرشد الناس إلى الهدى والتقى. ولما فتح الله سبحانه وتعالى مكة على رسوله ﷺ قالت الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها، وكان رسول الله يدعو على الصفا رافعا يديه. فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال: معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم. وبعد أن استتب الأمن بوجه عام أخذ النبيﷺ يرسل السرايا إلى القبائل المجاورة لمكة يدعوها إلى الإسلام، وتحطيم الأصنام، فهدم العزى ومناة وسواع، وبذلك انتهت هيبة الأوثان من النفوس وزال سلطانها، واستنار العالم العربي بنور التوحيد الوضاء.

وقد كان من أثر هذه السياسة الرشيدة للمصطفى ﷺ أن كسب قلوب أهل مكة، فأقبل على الإسلام فتيان قريش وشيوخها ونساؤها، فصاروا بعد ذلك وقودا بشريا لنشر الإسلام، وعلماءَ ودعاةَ خيرٍ للناس، وأصبحت قريش عونا قويا وركنا شديدا للإسلام، ثم أكرم الله رسوله وأنزل عليه قوله تعالى(إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) فتضمنت هذه السورة أن حياة الرسول في دنيا الناس قد دنت من المغيب، فظاهر السورة أن الله أمر نبيه أن يسبح بحمد ربه ويستغفره إذ نصره الله وفتح عليه، ولكن باطنها أن الله نعى إليه نفسه.

فاللَّهُمَّ صل على سيدنا محمد وجازه عنا خير ما جازيت نبيا عن أمته، وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته انك لا تخلف الميعاد، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي أنجز ما وعد به عبده ونبيه من الفتح والنصر، وأطاح بدعوته الشريفة بنظام الإلحاد والشرك والكفر، لا اله إلا هو الملك الحق المبين.

والصلاة والسلام على رسول الله القائل: إن الكرب مع الفرج، وإن النصر مع الصبر.

أما بعد- فتذكروا أيها المومنون حين خرج النبيﷺ يوم هجرته ليلا من مكة وطنِه مستخفيا في بطون الشعاب والأودية، مهاجرا إلى يثرب-المدينة- وقد سبقه مِن قبله ولحقه مِن بعده أصحابُه القِلّةُ المستضعفون يتسللون مهاجرين، وقد تركوا المال والأهل والأرض من أجل أن يبقى لهم الدين، وها هو النبي وأصحابه على موعد مع رمضان وقد رجعوا إلى الوطن والأهل والمال، ودخلوا مكة نهارا، وقد كثروا بعد قلة، وتقووا بعد ضعف، واستقبلهم أولئك الذين أخرجوهم بالأمس خاشعين أذلاء خاضعين، ودخل أهل مكة في دين الله أفواجا، وأقبل سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه وهو الذي طالما عُذب في رَمْضاء مكة على أيدي المشركين، فصعد على الكعبة المشرفة ينادي بأعلى صوته: الله أكبر الله أكبر، ذلك الصوت الذي كان يهمس يوما ما تحت وطأة العذاب: أَحَدٌ، أَحَد، أحد، هاهو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلا: "لا اله إلا الله محمد رسول الله" والكل خاشع خاضع.

لقد كان أهل مكة يبالغون في عداوتهم له ﷺ ويحاربونه بكل الأشكال، ولحقه منهم أنواعٌ من الإذاية والتعذيب هو وأصحابه طيلة بقائه بمكة قبل الهجرة وبعدها، فهاهم يقعون تحت قبضته وسيطرته يفعل بهم ما شاء، وها هو الآن يتمكن منهم فماذا سيفعل بهم، لكن الحليم جوابه: العفو والإغضاء، كما أشار له الإمام البوصيري رحمه الله تعالى في همزيته المباركة: فعفا عنهم ﷺعفو قادر، ولم يؤاخذهم بما مضى وما سبق، قام لله ابتغاء مرضاته لا لهوى ولا لحظ نفسه في جميع الأمور فأرضى الله موقفه مع أعدائه ومع أوليائه، كيف لا وفعله كله جميل، وهل ينضح إلا بما حواه الإناء.

فما أعظم هذا النبيﷺ وما أجل تلك السجايا التي رُكبت فيه، فكان ﷺ لا ينتقم لنفسه ولا يؤاخذ، بل يعفو ويصفح، ووقف التاريخ متعجبا من هذا العفو الجميل، وهذا الحلم النادر، والصفح الجميل، وهذا التصرف الإنساني.

فهل يعي المسلمون العبر وهل يتبعون آثار من سلف، ويستلهمون من سيرة نبيهم العبر والعظات، ويجعلون من أقواله وأفعاله نبراسا لهم يستضيئون به في حياتهم.

فاتقوا الله عباد الله- وآمنوا برسوله يوتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم. واغتنموا رحمكم الله العشر الأواخر من رمضان، واعرفوا فضلها، فهي أعظم أيامه فضلا، وأرفعها قدرا، وأكثرها أجرا، تصفو الأوقات للذيذ المناجاة، وتسكب العبرات بماء على السيئات، فكم لله تعالى من عتيق من النار، وكم من أسير للذنوب وصله الله بعد القطع، وكتب له السعادة من بعد طول شقاء قدم في أيامه المباركة توبة صادقة أتبعها بعمل في الباقيات الصالحات.

إنها الفرصة إذا أفلتت فلن تنفع بعدها الحسرات، والأعمار بيد الله، فاغتنموا شريف الأوقات، فما الحياة إلا أنفاس معدودة وآجال محدودة، والأيام مطاياكم إلى هذه الآجال، فاعملوا وأمّلوا وأبشروا فالمغبون - واللهِ- مَن انصرف أو تشاغل بغير طاعة الله، والمحروم من حرم خير هذا الشهر، والمأسوف عليه من أدرك رمضان فلم يغفر له.

اللَّهُمَّ اغفر لنا ولوالدينا ولمشائخنا ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات.

اللَّهُمَّ انقلنا من ذل المعصية إلى عز الطاعة، ومن طلاسم الغفلة إلى نور العلم والعمل،

اللَّهُمَّ إنا نسألك التوبة ودوامها، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها،

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

عباد الله- إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ...

الشيخ سيدي سالم بن ابراهيم
الإمام الخطيب بالجامع الكبير أدرار